

موضوعات شتى

المورخ ليفي

في نظر القرن التاسع عشر

بقلم الكاتب الاجتماعي : غويلمو فريو

« تعريب الحقوق »

لناقل الرواة ان السنيور مرتينو احد المنقبين عن الآثار القديمة قد عثر بين الانقاض في مدينة نابولي على مخطوطات المؤرخ الروماني تيت ليفي (ليفي) كما اصطلح ابناء العربية على تسميته . ولو صح هذا النبأ الذي احيط بالامرار ، لكننا اليوم من اسعد خلق الله حظاً بمطالعة افضل مخطوطة حفظت بين دفتيها تاريخ العصور الرومانية . امر السنيور مرتينو الى بضعة من اصدقائه انه اكتشف منذ سنة رفقاً قديمة بيتاً كان ينقب ويحفر في اساس احد البيوت التي تخصه فعملوا كلامه على محمل الصحة ، مع العلم بان البيوت لا ترصد عادة لحفظ المخطوطات القديمة لما عرف به هذا العالم الاثري من الصراحة في القول والصدق في العمل . وامنوا على كلامه لان البيت المتوه عنه قائم على انقاض كنيسة عريقة في القدم في احد باحات مدينة نابولس اليونانية . ظل خبر هذا الاستكشاف غامضاً ثم تحطى الحدود ولم يلبث ان ذاع سيفه انحاء العالم ، فكتبت عنه الجرائد ورددته الالسنه هزت له اوربا وتجاوبت صداه اميركا واتجهت انظار الناس الى نابولي غير ان

هذه الآمال الجيلة نلاشت بأقل من القليل ، واصبحت أثراً بعد عين ، وخابت ظنون الرواة واختفت الرقوق التي تكلم السنيور مرتينو عنها . كانت نهاية هذا الخبر الغريب منتظرة لدى جمهور العلماء لاعتقادهم بعدم إمكان العثور على نسخة كاملة في مكان واحد لاكتساب التاريخي النفيس الذي وضعه المؤرخ (ليفي) . يعلم جميع الذين درسوا حياة هذا المؤرخ واغتنموا بموافاته انه كان منبوذاً من ابناء القرن التاسع عشر ومبغوضاً من علائه وان المعجبين به والمغرمين بمطالعة كتبه كانوا قليلي العدد حتي اواخر القرن الثامن عشر . فقد امتننه المتنورون وتناوله اللغويون واساندة التاريخ بانتقاداتهم المرة وقالوا عنه انه عجز عن فهم حقيقة التاريخ الروماني ومعناه فلا يجوز ان يحسب من المؤرخين الاعلام . فوجدني اذاً ذلك مضطراً للانتصار له ورفع العقيرة ببيان فضائله ومزاياه ودفع الانتقادات القاسية التي وجهت اليه .

لم يغير هذا الاستكشاف الذي ادعاه السنيور مرتينو مكانة المؤرخ في نظر الجيل الحاضر ، ولم يرجع اليه تلك الفئة المتعلمة لتحيطة بعنايتها ، وعذرها عدم اطلاعها على الاقسام الاساسية من كتابه وهذا ما دعاني للبحث في سبب ما ناله من الامتهان ، بينما كان الناس منهمكين بموضوع الاستكشاف نفسه ، ان الاحكام التي صدرت بحقه تدل دلالة صريحة على اختلال اساليب التفكير - في هذا العصر ان لم يكن دليلاً على انحطاط عقليتنا . لماذا امتن معاصرو القرن التاسع عشر هذا الرجل الكبير الذي يعد في طليعة المؤرخين الاعلام في حين انهم صرفوا اكثر عنايتهم وتفرغوا لدرس تاريخ رومية والكتابة عنه ؟

يقع الكتاب التاريخي الذي نحن بصدده في مائة واثنين واربعين مجلداً يوجد منهم اليوم خمسة وثلاثين . العشرة الاولى والخمسة والعشرين ابتداءً من المجلد الحادي والعشرين حتي السادس والاربعين .

وقد تمسكت تاريخ اصل الرومانيين بشأنهم ، تمسكت عن الحروب
القرطاجية الثانية الى انكسار الفرس . وهذا الكتاب القسم المختص
بالحروب الالهية من عهد ديار يوس غراكوس الى ايام اوغسطس ، ولم يتصل بنا
شيء مما كتبه المؤرخ (ليفي) عن الجماعات التي عاشت في زمن يوليوس قيصر ،
واذا كان يتقصنا هذا القسم من تاريخه فقد عرفنا بطرق شهادات غير مباشرة انه
كتب بروح العداء وافرغ في قالب البغض لقيصر . واخبرنا سنيكا ان (ليفي)
بحث عما اذا كان مولد يوليوس قيصر قد افاد الجمهورية ام اضرها وبعبارة اخرى
هل كانت خدمته لها نوازي سيئاته . يعرف الجميع ان هذا المؤرخ قد اظهر
اعجابا وشبهه « لبروتس » (كاسيوس) اللذين تأمرا على قتل قيصر ، وان
ارغسطس كان يلتقيهما بالقب (البومبيين) . تمس المؤرخون المتخلفون امثال بلوتارك
وابيان وسونيون وديون كاسيوس في تدوين التاريخ على طريقة (ليفي) واقتفوا
اثمه واظهروا عند الاكثريات في نقل حوادث الابطال واساوا النية نحوهم .
وقد لا نعثر بين طيات كتبهم على شيء من الاعجاب او المغالاة بشجاعة ابطال
معركة (فرسايلوس) المنتصرين تلك الشجاعة التي اعترف لهم بها معاصرو القرن
التاسع عشر . ولا شك ان غواة التاريخ وبعض العلماء والمفكرين تعرفهم الدهشة
ويعتبرون باذيال الفشل والخيبة ، لوصح وجود هذا الكتاب النفيس واطلعوا
فيه على تاريخ يوليوس قيصر وتفصيلاته الوافية . وقد جاهر جماعة الفاشسي وهم
من مناصري قيصر ومن المقرين له ان المؤرخ ليفي كان من الرجعيين الذين
يصادون المبادئ الوطنية غير اننا نقول ان الروح التي تجلت في كتاباته ضد
القيصرية كانت مفتاح تاريخ الامبراطورية في القرنين الاول والثاني . وقد
طمس القرن التاسع عشر معالم القسم الزاهر من التاريخ الروماني ، وابتغى
اوقع درس من دروس العظمة السياسية والحكمة الفائقة اللتين القتهما علينا رومية

بلسان اكبر مؤرخ من مورخها . ولو فرضنا ان المؤرخ لبني كان احد معاصرونا
واطلع على مكيفات التاريخ ، وتفرغ للمطالعة والدرس في غرفته بين الوف
الكتب من جهة ، ثم صار يلقي الدروس في بعض الجامعات ويفوه بالمحاضرات الشهيرة
في المحام العلمية من جهة اخرى . عندئذ لا يصبح لعدائه للقيصرية كبير اهمية
اذ يصح ان يعزى لما يعمل في نفسه من الكراهية الشخصية نحوها بعد ان شاور
كبريائه الذي الهبه الانفراد واشعلته الوحدة . ولكن المؤرخ لبني لم يكن استاذاً
في جامعة ولا عضواً في مجمع علمي ، بل كان من كبار المثربين ودرس الفلسفة وتعمق
فيها ، وعاش بمنزل عن السياسة وشؤونها واتصل برجال الدولة الذين اداروا دفة
المملكة في فترة من ادق فترات التاريخ واكثرها تقلباً وهياجاً ، وعهد اليه
اوغسطس بهتذيب كلودبوس ابن دروسوس شقيق جرمانيكوس اي الامبراطور
الذي نبأ العرش واعلى سدة الملك فيما بعد . ويمكنني الافتراض انه كان ايضاً
استاذاً لجرمانيكوس نفسه ، لان اوغسطس كان واثقاً به ومدرّكاً معارفه الواسعة
وافندياره في تهذيب الشبيبة التي كانت ترشح لتولي مناصب الحكم ومنصات القضاء .
وضع لبني تاريخه الكبير تحت مشاركة اوغسطس نفسه واطلع عليه حاشيته
ورجال بلاطة فاعجبوا به وقدروا له عمله المجيد ، وهو يشبه في قسم منه شعر فرجيل
وفي قسم آخر شعر هوراس ، وقد كتبه وهو متأثر بالروح الدينية التقليدية
المشربة بلهجة ادبية ارستقراطية . تلك اللهجة التي ادت الى شبوب نار الحروب
الالهية . لم يكن عدا لبني ليوليوس قيصر مستمداً من شعوره الشخصي فقط ،
بل كان مظهرأ لما احس به معاصروه ومالوا الى استحسانه واقارره . وكان تاريخه
كما قال عنده اغسطس « بومي » وذلك لان الخاصة وكبار رجال الدولة عدلوا عن
الانتساب للبويميين ايام الحروب الالهية وبعد معركة (اكتيوم) اما هو فظل
محافظاً على تفاليدته . وقد كان جميع الناس وفيما بينهم متبذ يوليوس قيصر من

مندفعين في تيار الحركة الفكرية ، ولم يكن هذا الميل وتلك المظاهر مجرد معرفة تاريخ رومية بل لاسر آخر وهو ما يصح نسيمته بالفلسفة العامة للثورات مما خفي على علماء القرن التاسع عشر لخضوعهم لسيطرة خرافتين هما الثورة والعبقريّة . —

تمكن بوليوس قيصر من الاستيلاء على الجمهورية بقوة السلاح ولكنه عجز عن حكمها . وكانت تنبؤ المناصب العالية والقضاء بين الناس بالعدل في نبلاء الرومانيين ومن الاشراف المنتسبين لمجلس الشيوخ . وعينوا حاكم المطلقين (دكتاتور) تغيير هذا المنهج وقلب الحالة التي غشى عليها الرومانيون قبل ذلك العهد بسبعة قرون . ومما هو حري بالذكر ان جميع نبلاء رومية وقفوا فيفرجه قيصر وانضموا الي صفوف اعدائه وخصومه الا القليل منهم فتركوا حوله (ابان انتصاره) باعتزالهم الاعمال فراغاً كبيراً ، مما ادسب الى تورضه في عدة مشاكل صعب عليه الخلاص منها . ولما مات بقي المثلث او مجلس الثلاث قضاة (تريومفير) على حالته ، ثم عجز بعد معركة « فيليبي » عن حكم البلاد ودب اليه الضعف والوهن ، وتزوج مرقص انطوني كليون باثرة واعلى . نفعه ملكا على مصر دون ان يشعر رومية بزواجه . وقد ادرك اوغسطس اخيراً انه لا يستطيع ادارة المملكة الا بمعازفة الارستقراطيين فقال الى مرضاتهم تلك المراضاة التي اصبحت ضحية لها بين آخر رجل بقي من الحروب الاهلية وبين النبلاء . وقد وقعت المشادة وحصل النزاع بين بوليوس قيصر (وبومبي) اثر خلاف سياسي طفيف فلم يكن الاول مخبطاً كل الخطأ لانه كانت على جانب من الحق لمقابلته سيئات خصومه واعدائه بالتؤدة والاناة في بادئ الامر ثم لم يلبث ان التجهأ الى اعلان الحرب بعد ان يأس من اصلاح الحالة . وقد كان معاصرو المؤرخ لني غير راضين عن تصرفات قيصر الذي اضطر بعد ان اخترقت الحرمات الى المضي في عمله ومتابعة الحرب حتى النهاية فانتقل من معركة الى معركة ولم يرجع خطوة واحدة

عن خطته ولما قتل وسط مناخره لم ينش فواده عن متابعة الحرب التي دامت عشرين سنة وافقت التي الارستقراطيين .

ولما حاول اوغسطس تشكيل الامبراطورية فنش عن هؤلاء النبلاء ليسلمهم مهام الدولة فوجدهم زالوا وذابت ريعهم . وكانت آخر حرب اهلية اعلمها قبصر وانثارها خصومه بمثابة انتصار للنبلاء الرومانيين وكان قبصر واطقة هذا الانتصار المشهور اذا حرز عليهم الغلبة وادار المعارك بمقدرة حرية فائقة . وهذه الزوايا التي انصف بها والدور الفطيع الذي لعبه جعل معاصري المؤرخ ليني لا ينظرون له نظرة الاعجاب وكانوا على بينة من ان النبلاء وحدهم باستطلاعهم ادارة شؤون المملكة لان النظام لم يستتب على شواطئ البحر المتوسط الا عندما كانوا حاكمين . ويعمل تاريخ عائلة اوغسطس كونه عبارة عن محاولة وبأس . محاولة حكم تلك الامبراطورية الضخمة وبأس اعدام وجود الرجال الكفيا .

وقد اراد اوغسطس وطباريوس وكلوديوس حكم البلاد حسب المبادئ التقليدية التي عرفتها رومية اي بالانتحاء الى معاونة النبلاء ، ولكن هؤلاء بعد ان ضعف شوكتهم قل عددهم اثر الحروب الاهلية فضلوا العزلة والقوا عن عالمهم ذلك المجهود العظيم الذي عجزوا عن حمله وناوا تحته . ورجع كليغولا ونيرون في ادارة المملكة الى القواعد الاسيوية ورفضوا التعاون مع النبلاء الذين ابوا ، على ضعفهم وعجزهم عن الحكم ، ان تدار البلاد بدورهم . وقد ادت هذه الحالة الشاذة التي خلقتها الحروب الاهلية الى حدوث حرب اهلية ثانية وقعت حين وفاة نيرون ، وظن الناس انها ستقضي على المملكة واكتشفت بنيرانها ، وبرز الى ميدان العمل رجل كبير هو اوغسطس الجديد المؤسس الثاني لمملكة فيبسيان ، فاختار من بلاد الغول الواقعة بين نولي الالب « سيزالين » وما وراءه « تراسيلين » ومن اسبانيا ومن افريقيا الشمالية الف اسرة غنية متعلمة وادرجها في صف الشيوخ والفرسان

الملقبين « برب الحصان » ناصح في المملكة ببلاء وإشراف توهمهم ثمهم وميوهم الأدبية لحكمها طبقاً للتقاليد الرومانية .

وازدهت المملكة في عهد فلاقيان واماوان ، واقتضي أكثر من مائة سنة لاعادة الحياة والتجديد اليها بعد الخراب الذي لحق بها فيصر . وكانت المؤرخ ليفي والاعران فرجيل وهوراس في مقدمة من ساعد على انعاشها ، ولو راجعنا التاريخ لوجدنا ان الكتاب والشعراء الذين قاموا بأعمال بحيرة مثل هذه قليلون . وقد قدمت الأسر التي أتت من اسبانيا وبلاد الغول وافريقيا الشمالية للمملكة نخبة الرجال العامين المقتدرين فاداروها في القرن الثاني ، وذلك بعد تخبهم بالجنسية الرومانية ودخولهم في حقوق الارستقراطيين السياسيين . ومن هنا نتضح لنا أهمية تاريخ رومية منذ وفاة يوليوس قيصر الى عهد فيسباسيان وتذكر سبب مكافئة (ليفي) للقيصرية ومعاداة لها . وقد اضطررت الى عدم طريقة « دوري » (ومومن) وغيرهم من المؤرخين ، وجعلت اوغسطس يتباه يوليوس ، ليس كالطالب الذين يعمم ما شرع به استاذهم ويتخذ خطته ، بل كالخصم حيث كان مضطراً لاصلاح جميع ماخر به ذلك . ولكنني اعجب كيف ان القرن التاسع عشر لم يدرك الفكر الذي ابداه هذا المؤرخ الكبير الا بعد الجهد الجيد . السبب في ان ليفي من فريق المؤرخين المحافظين بينما القرن التاسع عشر قد كتب التاريخ واستقصى الحوادث الماضية بروح ولهجة ثورية . وكان دوري ومومن المنتسبين لاحزاب المحافظين فالروح الثورية التي اثرت على مؤرخي القرن التاسع عشر اذن كانت جذوة حادث خارق العادة يستحق المدرس الامان . ويؤمني جداً ان اري الارتباك متفشياً بين طبقة الحكام في ادربا فلا اثر لروح النظام عندهم ولا ما يعمل للمحافظة عليه . وقد كان ليفي ضحية هذه الروح الثورية التي بقيت تعمل أكثر من قرون على تكبير مناحي كنية التاريخ على غير علم منهم ، وجعل